وقفات تربوية

مع سورة الكهف

للشيخ المفضال

– أبي سعد العاملي –

(حفظه الله)

١ – تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، أرسله الله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وبعد

تقديم:

سورة الكهف من أكبر السور التي تكاد تمتلئ بالقصص، فأغلب آياتها تغطي قصصاً رائعة تكاد تكون من أحسن ما ورد في كتاب الله. "ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ومعظم ما تبقى من الآيات هو تعليق أو تعقيب على هذه القصص"[1].

وبما أن السورة تعتبر مكية المكان والزمان، فهي تركز على مواضيع العقيدة – كما هي طبيعة القرآن المكي – خاصة موضوع التوحيد وتصحيح المفاهيم الجاهلية حول أهم وأكبر المسائل التي تتعلق بحياة الفرد المسلم.

وما دمنا نتواجد في وضع شبيه بوضع بداية الرسالة، حيث انغمس الناس في الجاهلية من جديد، وارتد عدد من المسلمين ونسوا دينهم واتخذوا أهواءهم آلهة من

[1] في ظلال القرآن ص ٢٢٥٦.

دون الله، ومن بقي من المسلمين منتمياً أو مدّعياً لهذا الانتماء، فإنك تراه منغمساً في البدع، أو منحرفاً عن النهج القويم، بعيداً عن المفاهيم الصحيحة لهذا الدين العظيم.. من أجل كل هذا وغيره، نحن في أمس الحاجة للوقوف على القصص القرآني، نستقي منه ما ينفعنا في عملية الرجوع إلى الله أولاً، ثم في عملية التعرف على ديننا من جديد ثانياً، ثم في عملية التربية والإعداد للعمل بهذا الدين ونشره واستعماله سلاحاً لمواجهة الأعداء ثالثاً.

تلك هي أهداف القصة في القرآن الكريم، تربية وتذكير، تربية للنفوس وتأكيد على صدقية هذه الرسالة العظيمة وعلى صدقية هذا الرسول الكريم، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف ١١١].

"فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها.

في البدء: ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً، وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾

وفي الختام: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾

وهكذا يتساوق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحي، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث.

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صور شتى:

ففي قصة أصحاب الكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾، وفي التعقيب عليها: ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾.

وفي قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره: ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾

وفي التعقيب عليها: ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً، هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾.

وفي مشهد من مشاهد القيامة: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً ﴾.

وفي التعقيب على مشهد آخر: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾.

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به من علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان، وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله.

ففي مطلع السورة: ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ، مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾

والفتية أصحاب الكهف يقولون: ﴿ هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾.

وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف يكلون علمها لله: ﴿ قَالُوا: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾.

وفي ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجماً بالغيب: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾

وفي قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى حيث يقول ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ فيكل الأمر فيها لله.

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة، فيرد في مواضع متفرقة، حيث يرد القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح، ويصغر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التي تبهر الأنظار.

فكل ما على الأرض من زينة إنما جعل للابتلاء والاختبار، ونهايته إلى فناء وزوال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾.

وحمى الله أوسع وأرحب، ولو أوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق. والفتية المؤمنون أصحاب الكهف يقولون بعد اعتزالهم لقومهم: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً ﴾.

والخطاب موجه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليصبر نفسه مع أهل الإيمان، غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ، وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾.

وقصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة.. وكيف يجابه صاحبها المنتفش المنتفخ بالحق، ويؤنبه على نسيان الله ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾.

وعقب القصة يضرب مثلاً للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾.

ويعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾.

وذو القرنين لا يذكر لأنه ملك، ولكن يُذكر لأعماله الصالحة. وحين يعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السدين أن يبني لهم سداً يحميهم من يأجوج ومأجوج في مقابل أن يعطوه مالاً، فإنه يرد عليهم ما عرضوه من المال، لأن تمكين الله له خير من أموالهم: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾. وحين يتم السد يرد الأمر لله لا لقوته وعلمه البشري: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾.[٢]

سنحاول أن نسجل بعض الوقفات التربوية على هذه السورة، ونحن أحوج ما نكون إليها، خاصة في هذه الفترة التي تعيشها الأمة، التي تتميز بتكالب الأعداء علينا من كل جانب، والتي تتطلب منا – معشر المسلمين بعامة، ومعشر الشباب بخاصة – أن نعود إلى كتاب الله تعالى، نستقي منه ما يلزمنا من سلاح التقوى، ومن سلاح

[2] في ظلال القرآن: ٢٢٥٧.

تصحيح العقيدة، ومن سلاح الاقتداء بمن مضى من الصالحين والسلف الصالح في مواجهة الباطل.

ولاشك أن الباطل هو هو لم يتغير في جوهره، ولن يتغير سوى في الوسائل التي يستعملها ضدنا.

جدية الرسالة وقوتها:

تبدأ السورة ببيان جدية هذه الدعوة واستقامتها ونصاعتها، وبأنها من عند الله لا عوج فيها ولا تميع، كما تبين مهمة النبي عليه الصلاة والسلام ومهمة أتباعه من بعده، وهي الإنذار والتبشير، إنذار الكافرين والمعرضين عن الحق، وتبشير المؤمنين والتابعين للحق، فهذا هو محتوى كل الدعوات إلى الله عز وجل من لدن آدم عليه السلام وإلى قيام الساعة.

﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾.

وهي تأكيد على شناعة جريمة تشويه الرسالة والاعتماد في ذلك على الجهل والظن والكذب، وهي أساليب يلجأ إليها أهل الباطل حينما يعجزون عن مواجهة أهل الحق بالحجة والبيان– وهم دائماً عاجزون –، وهو أيضاً أسلوب الضعفاء والجبناء، أسلوب الالتواء والتحريف في مواجهة نصاعة الحق واستقامته وقوته.

ثم ينتقل السياق القرآني بعد ذلك إلى تطمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومواساته بسبب إعراض القوم عن دعوته، وهو الذي يكاد يذهب نفسه هماً وكمداً على هذا الإعراض والتكذيب، وكم ذا يحز في نفوس الدعاة أن يروا هروب الناس وإعراضهم من دعوتهم في الوقت الذي يسعون إلى إنقاذهم وهدايتهم، ويرون رفض

الناس الخروج من الظلمات إلى النور الذي يدعونهم إليه، ويرون إيثار القوم ملذات الدنيا الفانية وشهواتها الزائلة على ما عند الله من أجر وثواب في الآخرة وراحة بال وطمأنينة في الدنيا، فكل هذا وغيره يؤثر في نفوس الدعاة ويملأ قلوبهم حزناً وأسى ويتمنون لو كل الناس آمنت واتبعت الحق والهدى.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾.

فهذه الدنيا وما فيها من زخرف ومتاع وأموال وأولاد، جعلها الله اختباراً وامتحاناً لأهلها، ﴿ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾، فيلاقوا جزاءهم العادل والأوفى يوم القيامة، أما في الدنيا فكل شيء إلى زوال مهما امتلك الإنسان ومهما علا وتجبر ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾.

ذلك ما سنفصله في المقالات القادمة بحول الله تعالى، نسأله سبحانه أن يوفقنا ويلهمنا لخير الأعمال والأقوال، ويرينا عيوبنا ونقائصنا لنقومها ونصححها، فننصر ديننا ونحيي سنة نبينا، والحمد لله رب العالمين.

٢- فتية الكهف

بعد هذه المقدمة المستفيضة ، نُقبل على تفصيل مواضيع القصص الـــواردة في سورة الكهف، قصة قصة، نقف وقفات تربوية عند أهم المحطـــات فيهـــا، ونحـــاول استخلاص الدروس والعبر لنصحبها معنا في مسيرة الدعوة والتحرك بهذا الدين، وتلك هي الأهداف المتوخاة وراء ذكر هذه القصص القرآني، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـــكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

التميز والتحدي والمفاصلة والثبات والتضحية، تلك هي أهم الشعارات الـــتي تميز القصة، ويتميز بها أبطالها في زمن قلَّ فيه النصير، وكثر فيه الأعداء، سنقف عنـــد كل عنوان على حدة، لأنها نفس الشارات والرايات التي يرفعها أصـــحاب الحـــق في مواجهة أهل الباطل في كل زمان ومكان..

التميز:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾، لقد تميزوا عن قومهم بالإيمان بالله واعتناق عقيدة التوحيد المخالفة لدين قومهم، مهما كثر من حولهم ومهما قل عددهم هم في مواجهة ما يؤمن به المخالفون من حولهم، فالنفوس المؤمنـــة تكون قلة في بداية الأمر ثم ما تلبث أن تتكاثر وتتجذر في المحيط الذي تتحرك فيه.

حينما يلجأ المؤمن إلى ربه ويؤمن به وحده، وهو في موقف الضعف، فـــإن الله تعالى يقف إلى جانب عبده ليقويه ويثبته وينير له الطريـــق، فيزيـــده هـــدى الثبـــات والاستقامة على هدى الإيمان.

لقد تميز الفتية عن قومهم بأن فارقوا دين آبائهم وأجدادهم، وديـــن قـــومهم بالرغم من أنهم كانوا من علية القوم، ولم يكن ينقصهم متاع الحياة الدنيا الذي يتنافس عليه الناس ويتصارعون من أجله.

تلك هي الخطوة الأولى في طريق التغيير، لابد من أن تتميز بعقيدتك وأخلاقك وتعاملاتك، فذلك بمثابة تأسيس النواة التي سيحوم حولها المؤمنون معك وكل الأنصار القادمين.

التحدي:

بعد التميز تأتي استفزازات المخالفين لك في العقيدة والانتماء، فتبدأ سلســـلة مواجهات كلامية – في بداية الأمر – لكي تغير قناعاتك وتتنازل عن معتقداتك فتعود إلى ما عليه القوم، لأن في ذلك انتصار لمذهبهم وحفاظ على مكتســـباتهم واســـتمرار لسلطتهم، ولكن المؤمن الصادق لا يسعه إلا أن يقابل هذه الاستفزازات بتحد صارخ لا يقبل المساومة، ولا يترك مجالاً للعودة إلى الوراء، بل هو إعلان للبراءة ممـــا يخـــالف عقيدته؛ ﴿ إِنَّا بُرَاء منكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَـــا وَبَيْـــنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾.

وقد قالها فتية الكهف في مواجهة قومهم ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾.

تثبيت لألوهية الله عز وجل وربوبيته في هذا الكون ووحدانيته، ونفـــي كـــل شريك معه، ويترتب على هذا التصريح بالكفر بما سواه، ويترجم هذا بالخروج عـــن القوانين الوضعية وعدم التحاكم إليها، والسعي الحثيث لإزالتها واستبدالها بشريعة الله عز وجل المترلة. وقد يتولد على هذا التحدي مجموعة تبعات لابد من تحملها والقيام بها على أحسن وجه، مهما كلف ذلك من تضحيات وخسائر.

إن الإيمان حينما يخالط بشاشته القلوب المؤمنة، فإن أصحابها لا يأبهون بما يتبع ذلك، فهم يستمدون قوتهم وثباتهم من الله عز وجل، ويتقدمون إلى الأمام للإعلان عن هذا الميلاد الجديد، وعن هذه الحياة الجديدة، ويحاولون نشر هذا النور ليعم في الآفاق، وهم يعلمون علم اليقين أن الناس من حولهم مجرد عبيد، ضعفاء لا يملكون أن يحجبوا هذا النور الساطع مهما أوتوا من قوة وبطش وبأس شديد.

بل إن صاحب الإيمان يستعلي بإيمانه عن كل الحواجز والعقبات، ويسعى جاهداً لإيصال هذا النور إلى الناس من حوله، وحينما يعترض طريقه معترض، فإنه سيحاول إزالته بكل الوسائل الممكنة، وفي حدود طاقته، لتعبيد طريق الدعوة لمن يأتي بعده.

الثبات:

لعل أهم ما يميز طريق المؤمن هو كثرة العقبات والأشواك و تنوعها، مما يحتم على المؤمن أن يكون ذو همة عالية وصبر قوي ونفس طويل، وهو ما يمكننا جمعه في كلمة واحدة ألا وهو الثبات أو الاستقامة على الأمر[3].

فالاستقامة درجة أعلى من درجة الإيمان، لأنها تطالب صاحبها أن يكون دائم الطاعة والإتباع، لما في ذلك من مخالفة للهوى والأعراف والقوانين، وما يتبع ذلك من حرمان وأذى وفوات لمصالح مادية عديدة، وهو أمر قاس على النفس، يحتاج صاحبها إلى امتلاك إرادة قوية، وتوفيق من الله وتسديد.

والمؤمن بحاجة إلى الاستقامة في اليسر والعسر، حيث أن كثيراً من الناس يستطيعون تحقيق الاستقامة على أمر الله في حالات الرخاء والسعة، بينما تراهم

[3] انظر مقالنا: "آمن ثم استقم".

يتزعزعون ويرتبكون ويضعفون في حالات الشدة والضيق، وهي الأكثر حضـــوراً في هذا الزمان، حيث أن الإسلام وأهله يعيشون تحت حصار شامل ومتواصل من قبـــل أعداء الله، بغية ردهم عن دينهم وفتنتهم عن عقيدهم، وهذا يحتاج منا معشر المسلمين والمؤمنين أن نتسلح بسلاح الاستقامة والثبات على ديننا مهما اشتد هذا الضيق واتسع هذا الحصار.

لقد ثبت الفتية من قبلنا على دينهم، وهم لنا في هذا المجال أسوة حسنة، بالرغم من قلة عددهم وضعف عدهم، ولقد قاوموا إغراءات قومهم وتهديداهم، فانتصـــروا بإيماهم وعقيدهم، ونحن مطالبون بأن نحذو حذوهم في هذا الزمان لنحقق ما حققـــوه، فنجمع صفات الإيمان والتميز والتحدي والثبات إلى جانب صفات الدعوة والجهاد [4].

المفاصلة:

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً ﴾.

وهي نوعان، مفاصلة معنوية شعورية ومفاصلة حركية مادية. فأمـــا المفاصـــلة الشعورية فيحققها المؤمنون بمجرد انتمائهم لدين الله عز وجـــل، حيـــث يهجـــرون معتقدات القوم وعاداهم الباطلة، ويعكفون على عبادة الله وحده وطاعتـــه في كـــل صغيرة وكبيرة، كما أهم يغسلون أفكارهم من كل الشوائب الجاهلية فتصفو وترتقي إلى معالي الأمور، لا هم لها سوى السعي إلى تعبيد الناس لربهم والقضاء على عبوديـــة البشر للبشر والأهواء.

4 انظر "فتية الكهف وفتية الصف"، من هذا البحث .

أما المفاصلة المادية الحركية، فتكون بالانتقال من مكان المعصية أو الكفر إلى مكان الطاعة والإيمان، وهذا ما يصطلح عليه شرعاً بالهجرة. وتأتي الهجرة كآخر حل للمؤمنين للنجاة بدينهم والحفاظ على عقيدتهم، خوفاً من الفتنة والعودة إلى الكفر بعدما خرجوا منه.

وتكون الهجرة أولاً بالانتماء إلى التجمع الإيماني، والسعي إلى تقويض النظام الجاهلي لا المصالحة معه، وذلك بالعمل المتواصل الدءوب والمنظم داخل المجتمع المراد تغييره، حتى إذا أُغلقت الأبواب وسُدَّت كل الطرق في وجه التجمع الإيماني، فإنه حينئذ وحينئذ فقط، يلجأ إلى الهجرة، وهو الانتقال إلى مكان آمن يستطيع أن يواصل فيه إعداده لعملية التغيير داخل مجتمعه، والهجرة لا يقوم بها التجمع كله بل قد يقوم بها البعض فقط كما حصل في هجرة الحبشة وقد تكون كلية كما حصل في الهجرة الثانية إلى المدينة.

لقد هاجر فتية الكهف مجتمعهم بعدما أحسوا بعدم القدرة على مواجهة قومهم، حيث كان هناك عدم تكافئ واضح في موازين القوة، فقد كانوا أفراداً معدودين لا يمكنهم مواجهة نظام قائم بعدته وعتاده. كما أن الله تعالى لم يكتب عليهم هذه المواجهة لحكمة يعلمها سبحانه. قد يكون من بينها تحقيق معجزات وكرامات لهؤلاء الفتية ما كانت لتتحقق لو أنهم دخلوا في مواجهة مباشرة مع قومهم.

كما أود أم أنبه على حقيقة مهمة في مفهوم النصر، ذلك أن الغلبة والتمكين يكون للمبادئ والقيم، أما انتصار الأشخاص فلا يكون هو الصورة الوحيدة للنصر، ذلك ليعلم المؤمنون أن ذهاب الأرواح في سبيل الله، وفي سبيل نصرة العقيدة هو قمة الانتصار والتمكين وليس العكس.

إن المفاصلة ضرورة حتمية يحتاجها أصحاب الحق، لكي يتمكنوا من إعداد العدة في أجواء مناسبة، بعيداً عن أعين الأعداء. كما أن المفاصلة وسيلة فعالة لأصحاب الحق للتميز و من ثم استقطاب أعضاء جدد لدعوتهم.

تجمع جديد مستقل، وإعلان البراءة من المجتمع الجاهلي الذي يراد تغـــييره، ثم هو إعلان عن بدء عملية التغيير الشاملة والجذرية.

كما أن عملية المفاصلة تكون دائما مرافقة لمعية الله تعالى ومدده وحفظـــه؛ ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً ﴾.

وكما سبق القول، فإن صورة الكهف تتغير من زمن لآخر بحيث يـــؤدي دوره المتمثل في الحفاظ على المؤمنين وحمايتهم من بطش أعدائهم. ففي يومنا هذا يتمثـــل في هذه الجماعات المجاهدة التي تتناثر عبر عالمنا الإسلامي العريض، فهي التي يأوي إليهـــا المجاهدون، أو الفرارون بدينهم، في انتظار انبعاثهم لمقاومة أهل الباطل من حولهم.

كما أن كهف العصر يتمثل اليوم في هذه الجبهات الجهادية التي فتحت علـــى أيدي المؤمنين، ولقد أوى إليها المئات إن لم يكن الآلاف من فتيـــة العصـــر، بعـــدما انقطعت بهم السبل في أوطانهم وبين أقوامهم، آثروا اللجوء إلى هذه الكهوف الجهادية فراراً بدينهم وحفاظاً على عقيدتهم، ولكن أيضاً استجابة لنداء إخوانهم المستضـــعفين، الذين يرزحون تحت نير الاحتلال الكافر والمرتد.

إن الكهوف المعاصرة تعتبر أماكن مثالية للإعداد الشامل، قبـــل أن يبعـــث الله هؤلاء الفتية من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل في عقر ديارهم التي خرجوا منها.

وهي تشكل خطراً كبيراً وعظيماً على أهل الباطل، لذلك تراهم ينفقون الجهود المضنية والأموال الطائلة لمنع تدفق فتية الجهاد إليها، ووضـــع الحـــواجز المتنوعـــة في طريقها.

إن فترة الإعداد ضرورية وحتمية لمسيرة الجهاد، وقد تطول هـــذه الفتـــرة أو تقصر بحسب نوعية الموطن ونوعية الفئة المجاهدة كذلك [5].

[5] انظر مقالنا: "ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة".

وخلال فترة الإعداد يحيط الله تعالى عباده بالرعاية اللازمة ويعمي عنهم الأبصار حتى تتم إرادته وقدره على أيدي هؤلاء الفتية. وكما حمى فتية الكهف لمدة ثلاثمائة وتسع سنين دون أن يكشف أمرهم أحد، فإنه سبحانه قادر على حفظ فتية الجهاد في كل وقت، بالرغم من محاصرتهم وتهجيرهم في الأرض على أيدي الطغاة الظالمين.

﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً ، وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾.

يحيطهم سبحانه بعنايته الواسعة، إلى حين انبعاثهم من أجل إقامة الحجة على الناس بالجهر بالحق ومقاومة الباطل من حولهم.

وحينما تأتي ساعة الحسم ويأذن الله للفتية بالخروج، فإنه سبحانه يهيئ الظروف المناسبة – المعنوية والمادية – لكي يتحقق وعد الله تعالى لعباده بالنصر والتمكين.

إن مجرد الخروج وإعلان البراءة من القيم الجاهلية القائمة والكفر بالقوانين الوضعية السائدة، هو في حد ذاته نصر كبير للقيم الإسلامية وتمكين لشرع الله تعالى في نفوس أصحابه أولاً، ثم في نفوس العديد من الأنصار ثانياً.

لقد انتصر فتية الكهف على قومهم حينما تمسكوا وثبتوا على عقيدتهم، وانتصروا على النظام القائم حينما لم يخضعوا لقوانينه، وخضعوا لله وحده ولو في كهف مظلم منعزل، وهذا لعمري هو النصر الحقيقي الذي يقهر الطغاة والظالمين في كل زمان.

وحينما يعجز الظالمون عن تركيع أهل الحق لأهوائهم وشرائعهم، فإنهم يلجأون إلى أساليب التخويف والترهيب من تهجير وسجن وتقتيل، عسى أن يحققوا أهدافهم، ولكن الله جل وعلا يأبى إلا أن يتم نوره ويعلي كلمته ويهلك عدوه بأيدي المؤمنين.

وهكذا ينتصر فتية الكهف على رجالات القصر، ولم تنفعهم حصونهم ولا عتادهم في مواجهة فتية آمنوا بربهم فزادهم تقوى وثباتاً وصبراً، ولا استطاعوا أن يوقفوا مسيرة الإيمان بالرغم من غياب أصحابها عن الساحة، ليعلم أهل الحق أن الله ناصرهم وناشر دعوته في النفوس لمجرد ثبات أصحابها عليها.

لقد طالت مدة غيابهم عن الساحة، وكانت هذه الغيبة بمثابة وفاة لهم، أو بالتعبير القرآني الدقيق، شهادة في سبيل الله، تركوا وراءهم مواقف إيمانية عالية، أثرت في الناس من بعدهم، وتدارسوا سيرتهم جيلاً بعد جيل، حتى تحولوا إلى رموز للحق، وبعث الله تعالى من حمل رسالتهم وسار على نهجهم حتى أحق الله الحق وأبطل الباطل. وهكذا يكون أمر الشهداء، أحياء بين الناس بسيرتهم ومواقفهم حتى وإن غابوا بأجسادهم، كما يكون أمر السجناء والمعتقلين كذلك، فالثبات على الحق والاستقامة على المنهج كفيلان بنشر الدعوة والتأثير في الناس ولو كان الداعية غائباً عن الساحة.

أسأل الله سبحانه وتعالى في ختام هذا المقال أن يوفقنا لتجسيد هذه الصفات في أنفسنا لكي نكون من فتية العصر، ويلهمنا الصواب لنهتدي إلى كهف العصر.

٣- فتية الكهف و فتية الصف

لقد خلق الله الخلق وبعث إليهم أنبياء ورسلاً للقيام بعبادته وتحقيق التوحيد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦]، وقوله عز من قائل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فمدار الدعوة كلها منذ أن خلق الله آدم وإلى قيام الساعة هما هذان الأمران: عبادة الله عز وجل وتحقيق عقيدة التوحيد. وكل ما عارض أو وقف في سبيل تحقيقهما، وجب البراءة منه ومعاداته ثم محاربته، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ومن صفات فتية الحق استعلاء الإيمان والتضحية بكل ملذات الدنيا وشهواتها وترك الأهل والعشيرة والمناصب في سبيل الهجرة بالدين والحفاظ على العقيدة، والتحدي الكبير والواضح للجاهلية ولكل قوى الباطل، حتى وإن اضطر الأمر أن يلجأ الإنسان إلى كهف مظلم لا يوفر أبسط ضرورات الحياة، فالمؤمن لا يمكن أن يضحي برأس المال في مقابل الحفاظ على الربح، فضلاً عن أن يضحي برأس ماله في مقابل لا شيء فما عند الله خير وأبقى، وأحلى وأعظم قيمة مما يعده أهل الباطل به في مقابل التنازل عن عقيدته واتباع القوم على باطلهم.

فالدنيا في نظر المؤمن لا تعدو أن تكون مجرد ساعة من النهار، فهو يحرص على أن يجعلها طاعة لله، ليلقى الجزاء الأوفى في الحياة الأخرى.

وهذا ما حصل لفتية الكهف حيث آثروا الفرار إلى الله تعالى والزهد في دنياهم، فلجأوا إلى الكهف بعقيدتهم ودينهم وتركوا الدنيا وملذاتها وراء ظهورهم

بعدما كانت في أيديهم، وهذا هو الزهد الحقيقي والإيمان المثالي الذي يستحق أن يخلده رب العزة في كتابه الحكيم، ليكون مثلاً أعلى للأجيال القادمة حتى قيام الساعة.

ولكل زمن فتيته، ولكل وقت كهفه، ويبقى الكهف رمزاً لأهل الحق وملجأ لهم في كل زمان ومكان، إنه يتغير شكلاً وحجماً ولكن يظل هو هو جوهراً وروحاً.

وحينما يشتد الضيق والحصار على أهل الحق من قبل أهل الباطل، فإن فتية الحق يضطرون إلى الفرار بدينهم والبحث عن كهف زمانهم ليلجأوا إليه حتى يقضي الله بينهم وبين قومهم بالحق وهو أحكم الحاكمين.

وقد لا يكون كهف هذا الزمان مادياً، بحيث يمكن أن يتمثل اليوم في هذه الجماعات والتنظيمات الإسلامية التي تجتمع على عقيدة التوحيد، سعياً إلى إقامة الدين، ومحاربة الباطل بإزالة أنظمته وكسر شوكته. يهاجر إليها المخلصون من أبناء المسلمين لتحقيق عبودية الله عز وجل داخلها ابتداء، ثم السعي الحثيث نحو إعداد العدة لتحقيق هذه العبودية داخل المجتمعات. وتكون هذه الحركات والتنظيمات بمثابة السياج والحصن الذي يحفظ المؤمن من براثين الجاهلية التي تحيط به، والتربة التي يزرع فيها بذرته لتؤتي أكلها بعد حين بإذن ربها.

فتية الكهف في الزمن الأول لم يكونوا مطالبين شرعياً بإزالة دولة الباطل في زمانهم، فكل مهمتهم كانت تتمثل في البراءة من هذا الباطل وإعلان كلمة التوحيد، فلم يكن الجهاد – يومئذ – فرضاً عليهم، فلجأوا إلى الكهف فارين بدينهم وعقيدتهم وفراراً من بطش الملك الكافر وجنده حتى لا يفتنوهم ويردوهم عن دينهم ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ [الكهف ٢٠].

أما فتية العصر وهم فتية الصف، تيمناً بسورة الصف، فشأنهم يختلف قليلاً على مستوى الوسائل والسبل الواجب اتباعها لتحقيق عبودية الله عز وجل، نجد أهم سماتهم في سورة الصف.

- الالتزام بالعهود مع الله تعالى وحمل مسؤولية التوحيد والانتماء إلى هذا الدين على مستوى تطبيق أوامره الانتهاء عن نواهيه؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف ٢-٣].

- التنظيم ورص الصفوف؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف ٤]

- أن فئة الحق والمنهج الذي يحملونه محاربون من قبل أهل الباطل في كل زمان ومكان؛ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف ٥]، ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف ٦]، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف ٨].

إنها الحرب الشاملة والمستميتة لإبادة هذا الدين، ويأخذ ذلك أشكالاً مختلفة وشعارات متعددة، آخرها شعار "محاربة الإرهاب"، ويجسدونه بقتل قيادات ومجاهدي الأمة، ومحاصرتهم ومحاولة تجفيف منابع التوحيد ومحاربة منهج أهل السنة والجماعة واستبدالها بمناهج بدعية في دثار الإسلام أو بالتعبير القرآني "دين الملك".

لقد تكالبت قوى الباطل على فتية العصر، يريدون أن يفتنوهم ويردوهم عن دينهم، ويريدون أن يطفئوا نور الحق وكلمة التوحيد وعقيدة الجهاد في نفوس المسلمين، وكانت الوجهة أفغانستان، كهف المجاهدين والفارين بدينهم، ومن حكمة الله تعالى ورحمته أن جعل هذا البلد مليء بالكهوف الآمنة الحصينة والجبال الوعرة

الصامدة ، لتأوي إليها هذه العصابات المجاهدة وتحمي شوكة الإسلام وعقيدة التوحيد كما حمى الكهف أولئك الفتية في الدهر الأول، ولم يستطع خصومهم من أهل الباطل أن يصلوا إليهم، ولا أن يطفئوا نور الحق الذي استقر في قلوبهم، وعادت سنة الله تعالى من جديد، تسطر ملاحمها في هذا العصر، ولنشاهد نماذج أخرى من فتية الكهف، ولكن هذه المرة فتية وجدوا أمامهم حقائق سورة الكهف، تذكرهم بما لاقى إخوانهم الأوائل في سبيل هذه العقيدة، وتوجيهات سورة الصف لمواجهة كيد الكافرين، ليس بالفرار واللجوء إلى الكهف فحسب وإنما برص الصف وحد السيف.

والله سبحانه يعد عباده بالغلبة والنصر ولدينه بالظهور والرفعة ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٣٣]، ويوضح لنا الطريق الموصل إلى تحقيق هذه الوعود، وذلك في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف ١٠ – ١٣].

وهذا أهم ما يميز فتية الصف عن فتية الكهف.

وإن كان الكهف يدخل ضمن العتاد الذي يستعمله فتية الصف في هذا العصر، إضافة إلى رأس الأمر وذروة سنام هذا الدين، وهو الجهاد بالمال والنفس، وهو ما يسميه الأعداء بالإرهاب، نظراً لما يمثله من مخاطر آنية ومستقبلية على مبادئه ومشاريعه وخططه.

فالجهاد يعتبر اليوم نقطة القوة في معترك الصراع بين الحق والباطل، ومفرق الطرق بين الطائفة المنصورة أو الفرقة الناجية وبين باقي الفرق المبتدعة، ولهذا نجد كل هذا الإصرار لدى الذين كفروا لينسخوه نسخاً وينزعونه نزعاً من قلوب المسلمين،

﴿ودَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [المائد ١٠٢].

ولا غرابة أن يبدءوا بقلب الأسماء وإخراج الجهاد عن مفهومه الحقيقي، فيسمونه إرهاباً وعنفاً واعتداءاً، بينما القرآن الكريم يسميه بالتجارة التي لن تبور، وبالتجارة التي تنجي أصحابها من عذاب جهنم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف ١٠-١١].

- والسمة البارزة الأخرى التي يتميز بها فتية الصف عن فتية الكهف هي الأنصار؛ ففتية الكهف لم يكن لديهم نصير سوى الله تعالى ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾، فكانت مهمتهم هو التميز عن قومهم بإعلان العبودية الحقيقية لله عز وجل واعتزال قومهم وإعلان العداء والبراءة من معبوداتهم ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ، هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ [الكهف ١٣ - ١٥].

فكانت نصرة الله لهم ورحمته ومدده تتجلى في هدايتهم إلى الكهف، ليحافظوا عل عقيدهم وينتصروا على قومهم ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً ﴾ [الكهف ١٦]. وضرب الله على آذانهم فلم يستطع قومهم أن يفتنوهم عن دينهم، فكان هذا هو النصر الأكبر والفوز الأعظم ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ، فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ [الكهف ١٠-١١].

أما فتية الصف فلهم أنصار من البشر وآخرون من الملائكة إلى جانب الناصر والنصير الأعظم ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾. فنجد النداء الرباني في آخر السورة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ ﴾ [الصف ١٤]. فوجود الأنصار إلى جانب الرسل والدعاة هو بمثابة الحجة عل الخلق، وهم الذين يحقق الله بهم النصر والتمكين لدينه ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾، وهي سنة الله في الدعوات من قبل ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف ١٤].

ومن دواعي وجود الأنصار للدعوات، كون المعركة تتخذ أشكالاً مختلفة ومتشعبة، وتتمثل في جبهات عديدة ومعقدة ، تتطلب الكثير من الاختصاصات، والعديد من الكفاءات. ففتية الصف اليوم يواجهون العالم بأسره، بكل ما فيه ومن فيه، جبهات عديدة ومتنوعة، ومعارك نوعية تتطلب جنوداً وأنصاراً مؤهلين كيفاً وكماً، وهو ما يدعو إليه الأمر الرباني الخالد ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال ٦٠].

ولو أننا آثرنا القعود وانتظار ما ستسفر عنه الحرب الدائرة بين فتية الصف وأهل الباطل، فلسوف نحكم على أنفسنا بالهزيمة والدمار في الدنيا، وبالخسارة والبوار يوم القيامة ، إذ لا عذر لنا – شرعياً كان أم عقلياً – باعتزال المعركة واجتناب الصدام مع أهل الباطل، ولن نرضى لأنفسنا أن نكون أقل من حواريي عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، والله تعالى يمدحنا في قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ﴾، فهل هناك معروف أكبر وأعظم من محاربة الباطل والوقوف إلى جانب هؤلاء الفتية؟! وهل هناك منكر أكبر من وجود الباطل والكفر في عقر دارنا ومن قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ومن إخراج المؤمنين وفتنتهم عن دينهم؟!

ماذا سنربح – في ميزان الدنيا – يا ترى لو وقفنا موقف المتفرج القاعد المترقب لنتيجة المعركة؟ ومـــاذا سنخســـر – في ميزان الله – لو دخلنا المعركة كأنصار لهذه الفئة المنصورة، وهم فتية الصف السائرين على درب فتية الكهف؟!

لن نخسر أكثر مما خسرنا، وسوف نربح ما لا يمكن أن نربحه ولو عمّرنا عمر نوح ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف ١٢-١٣].

نسأل الله العلي القدير أن يجعلنا من فتية الصف، الذين جسدوا فضائل سورة الكهف وطبقوا تعاليم سورة الصف.

٤- قصة صاحب الجنتين

في هذه القصة سنقف مع عناصر جديدة من شأنها أن تثبط الإنسان وتكبله، فيقعد عن أداء الواجبات الشرعية أو يتحول إلى عنصر هدم وإفساد في الأرض، كما من شأنها أن تحوله إلى عنصر بناء وتدفعه إلى أداء الواجبات المنوطة به بكل إخلاص وصدق.

من هذه العناصر نجد التواضع والقناعة والشكر وابتغاء ما عند الله كعناصر بناء وقوة، بإمكانها أن تؤدي إلى النجاح والنصر والتمكين، في مقابل التكبر والجشع والطمع والجحود والاعتماد على القوة المادية وعلى الذات كعناصر هدم وضعف والتي بإمكانها أن تؤدي إلى الفشل والهزيمة والحرمان.

أهمية هذه العناصر تكمن في كونها تعتبر من الأساسيات في بناء الشخصية المسلمة المستقيمة المجاهدة، وعكسها تعتبر من أساسيات الشخصية الفاشلة المنحرفة عن السنن الشرعية والقدرية، والتي تؤدي بالتالي إلى ترسيخ ثقافة الهزيمة والتواكل والسلبية في الأفراد والجماعات.

نريد أن نقدم هذه الوقفات التربوية بشيء من التفصيل والتأصيل، لعلها تساهم في إعادة بناء الشخصية المسلمة المأمولة، التي ستنهض بأعباء التغيير بدءاً من نفسها ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾، ثم انتقالاً إلى المحيط الخارجي لزرع هذه العناصر البناءة في الطليعة المجاهدة، وانتهاء بتحقيق النصر والتمكين والاستخلاف المنتظر في هذه الأرض والتمكين لهذا الدين العظيم، وفق الوعد الرباني الذي لا يتخلف، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾.

فكل العناصر سالفة الذكر في شقها الإيجابي تعتبر عنواناً للتوحيد والخضوع لله عز وجل، وتحقيق لشروط التمكين والاستخلاف، بينما تعتبر العناصر السلبية المذكورة سالفاً، عنواناً للشرك والخضوع لغير الله في العبودية والإتباع، وبالتالي تؤدي إلى الهزيمة والتيه وإلى عذاب الله وعقابه في الدنيا قبل الآخرة.

أسأل الله تعالى أن يفتح علينا بالفهم والحكمة لكي نستخلص تلك الدروس النفيسة من كتاب الله تعالى، ونحن نقف على هذه الآيات الكريمات، لتكون لنا عوناً ونبراساً في طريق التغيير، طريق الدعوة والحسبة والجهاد، وكلنا أمل في أن تجد الآذان الصاغية والقلوب الواعية والسواعد الرامية، والله ولي التوفيق وهو يهدي السبيل.

ونبلوكم بالشر والخير فتنة:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً ﴾.

إن الله سبحانه وتعالى يبتلي عباده بالعطاء كما يبتليهم بالمنع، يبتليهم بالسراء كما يبتليهم بالضراء، يبتليهم بالرخاء كما يبتليهم بالشدة، وذلك ليعلم من يصبر ممن يضجر، حكمة الله البالغة. ولكي نعلم نحن العبيد الفقراء أن هذه الدنيا دار امتحان وبلاء وليست دار نعيم وعطاء، يأخذ منها المؤمن والكافر، والعاصي والمطيع، والموحد والمشرك، دار من لا دار له، وممر سرعان ما ينقضي لنمر عبره إلى دار البقاء، و تلك هي الدار الحقيقية والأبدية.

لقد ضرب الله سبحانه أمثلة عديدة في كتابه العزيز، يبين فيها هذه الحقيقة، ومنها هذه القصة التي بين أيدينا، قصة صاحب الجنتين، كما ضرب مثلاً آخر في قصة أصحاب الجنة ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ،

وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾، فهو في حقيقة الأمر ابتلاء وفتنة وليس نعمة ومحنة كما قد يعتقد الكثير من الناس.

إن أكثر الناس قد أصبحوا مسخَّرين للمال والمتاع الذي رزقهم الله إياه، ويكون همهم هو حفظ هذا المال خوفاً من الفقر والحاجة، والقليل من ينجح في قلب هذه المعادلة، حيث المطلوب أن يكون هذا المتاع وسيلة للتقوية على عبادة الله ونفع عباده، فهذا الصنف قليل ونادر، لذا وجب التذكير والوقوف على هذه القصة لاستخلاص ما يمكن من عبر ومفاهيم إيمانية ووقفات تربوية، لعلها تؤثر في النفوس، فتؤتي الأكل المرغوب بإذن ربها.

هذه قصة رجل آتاه الله كل ألوان المتاع وكل أنواع المال الذي يحلم به المرء في هذه الحياة الدنيا، وبدلاً من أن يشكر ربه على هذه النعم، وينفق منه سراً وجهراً، ويدفعه إلى معرفة حقيقته وضعفه وفقره أمام قوة الله وغناه، نراه يتصف بكل الصفات التي يستحق صاحبها غضب الله وعقابه، وبالتالي تودي به إلى زوال النعمة، وإلى حرمانه منها والعودة إلى سابق عهده، لا يملك شيئاً، بل إن الله تعالى قادر على أن يسلبه صحته وعقله لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً، فهو المعطي وهو المانع، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وهذه حقيقة لا ينبغي أن نغفل عنها قيد أنملة ما دمنا في هذه الحياة الدنيا.

﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾، وهو استعلاء وتكبر على الخلق بما آتاه الله من فضله، وهو – سبحانه – إذا شاء حرمه فيتساوى مع صاحبه في متاع الدنيا.

إنه الجهل بحقيقة هذه الحياة الدنيا، كونها زائلة ولا تدوم لأحد مهما أوتي من علم وقوة وحكمة، وبأنها مجرد فتنة ومحنة ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾، وليست اصطفاء ومنحة كما قد يظن الكثير من الغافلين. إن الله تعالى يمتحننا بالقليل كما

يمتحننا بالكثير، والذي ينفق من القليل مؤهل بأن ينفق من الكثير أيضاً، والذي يبخل بالكثير سوف يبخل بالقليل حتماً.

كفر بالنعمة واستكبار في الأرض:

إن الذي يستعلي على الناس بما آتاه الله ويفتخر بما لديه من متاع الدنيا يظـن بأن الله تعالى قد خصه من دون العباد، وبأن ملكه باق إلى قيام الساعة، وهذا ما يقوله صاحبنا لصاحبه ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ، وَمَـا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن حب الدنيا قد أعمى بصيرته، ولم يعد يميز بين الحقيقة والخيال، ولا بين الواقع والمثال.

والكثير من الناس يقولونها بواقع الحال وليس بواقع اللسان، حيـث تـراهم يعقدون كل آمالهم على ثرواتهم وجاههم ونفوذهم، ويظنون بأن هـذا هـو السـند الحقيقي لهم في هذه الحياة الدنيا، بل إنهم يعتقدون بأن هذا السند باق لن يـزول مـا داموا أحياء يرزقون.

والخطير في الأمر أن هذا الاعتقاد يجعلهم يتملصون من واجباتهم، فلا ينفقـون إلا قليلاً، ولا يقومون إلى عباداتهم إلا وهم كارهون.

فأمثال هؤلاء لا يمكن أن يجاهدوا بأوقاتهم وأموالهم فضلاً عن أنفسهم ﴿ وَلَـوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً ﴾، فالذي يريد الجهاد لابد أن يعود نفسه على النفقة بالوقت والمال[6].

[6] أنظر مقالنا: "ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة" ومقال: "وقفات تربوية مع بيعة العقبة الثانية"

تكبر واستعلاء وطول أمل وجحود لنعم الله تعالى واعتماد على القوة المادية، كل هذه الصفات نراها تجسدت في هذا الرجل، وهو يتباهى أمام صاحبه، بينما في الطرف الآخر نرى نموذجاً مخالفاً بل ومناقضاً للنموذج الأول.

الإيمان والرضا:

رجل مؤمن راض وقانع بما قسمه الله له، شاكر لأنعم الله متواضع له، واضع يقينه التام وثقته المطلقة في ربه، على أنه هو الرزاق ذو القوة المتين، ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾، وهو تذكير بأصل الإنسان المهين البسيط، لعله يفيق من غفوة التكبر والاستعلاء على ربه وخلقه، من هذا التراب الذي نطأه ونسير عليه في كل لحظة، ومن نطفة حقيرة أصلها من ماء مهين خرجت من مجرى البول، وهي زيادة في الاحتقار ليعلم هذا الإنسان أصله ومبتدأه، لكي تظل دوماً صورة أمام عينيه تذكره وتحجمه عن التكبر والاستعلاء.

﴿ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾؛ خضوع تام لربه وعبودية مطلقة لخالقه، وهي في مقابل قول الرجل الأول ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾، كفر بالساعة وتمني على الله بأن يرزقه في الآخرة أفضل مما رزقه في الدنيا.

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾؛ وهو الدعاء الذي يرمز إلى التواضع والشكر والاعتراف بنعم الله وفضله وقوته، فكل ما عند الإنسان أصله من الله تعالى، وإن كان قد حصل عليه بعمل يديه وعرق جبينه، لأن القوة التي سخرناها للحصول على النتائج إنما هي من الله، كما أن هذه النتائج تحتاج إلى توفيق الله أولاً وأخيراً، ففي النهاية كل نجاح وكل نعمة من الله وحده.

﴿ إن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ منكَ مَالاً وَوَلَداً ، فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾، فالرزق غير ثابت وغير دائم، فالله سبحانه قادر على أن يقلب الصورة، فيصبح الغني فقيراً والفقير غنياً، كما يصبح القوي ضعيفاً والضعيف قوياً، يحرم هذا بأسباب وبغير أسباب، ويمنح ذاك بأسباب وبغير أسباب كذلك. فكم من غني افتقر بعد غناه بين عشية وضحاها وكذلك العكس، والأمثلة في هذا أكثر من أن تحصى، ولكن الإنسان يغفل وينسى بل ينسيه الشيطان هذه الحقيقة القرآنية والسننية وسط متاهات الحياة وملذاتها ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾.

أما المؤمن الواثق بربه، المتوكل عليه حقيقة يعلم يقيناً بأن ما فاته من الدنيا لن ينقص من قيمته عند الله، وما يكسبه المرء من حظ الدنيا لن يرفع شأنه عند الله إلا بمقدار ما ينفق من هذا المال في سبيل الله وفي سبيل عمارة الأرض في الخير والإحسان لعباد الله، أما ما عدا ذلك فسيكون مجرد لذة عابرة في الحياة الدنيا ووزر وندامة يوم القيامة.

كما أن المؤمن يعلم بأن الله تعالى يرزق من يشاء بحساب وبغير حساب، وحينما يرزقك فلحكمة بالغة، وقد يكون هذا الرزق سلاح ذو حدين، قد ينفعك وقد يضرك، وحين يحرمك فلحكمة بالغة كذلك، وقد يكون هذا الفقر والحرمان خيراً لك في دينك ودنياك وإن كان ظاهره عكس ذلك. فقد يكون العطاء والغنى استدراجاً للكثير من الناس، كما يكون نعمة لآخرين، وهكذا تتفاوت الأرزاق وتختلف الحكم الربانية في ذلك من شخص لآخر ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾.

لئن كفرتم إن عذابي لشديد:

أما صاحبنا فظاهر الأمر أن الله قد حرمه من هذا المتاع بسبب بطــر النعمــة وتكبره على الله، وكان هذا الجزاء الدنيوي؛ ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ وكم من نعم يؤتاها الإنسان فلا يعير لها كبير اهتمام، بل قد يستعملها في الشر ومنع الخير، حتى إذا فقدها أفاق وندم على ما فات، ويتمنى لو تعود إليه لكي يحسن صنعاً، ولات حين مندم.

إن الله تعالى حكيم في فعله وحكيم في حكمه وقضائه، والقاعدة الثابتة هــي ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، سنة لا تحابي أحداً، جزاء من جنس العمل، قطعت فقطع الله عليك، منعت فمنع الله عنك. وهذا الحكم يشمل كل النعم التي يتمتع بها الإنسان، خاصة المؤمن بما لديه من إيمان وفهم لــدين الله وقــوة جوارح، لابد أن يسخر هذا في خدمة دينه ونصرته بما أوتي من نعم الله، ومــن يمتنــع ويبخل فإنه لا يستحق هذه النعم والأجدر أن لا تدوم له، وإذا دامت فلن تنفعه، بــل ستكون عليه وزراً في الدنيا ووبالاً في والآخرة.

وهنا يرجع المرء إلى أصله وحقيقته، على أنه لا شيء ولا يملك شيئاً ولا حول له ولا قوة إلا بالله، فإن شاء رفعه وأعطاه وإن شاء وضعه وحرمه ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَــةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً ﴾ ومن يستطيع أن ينصره على الله، أو يحاول أن يرد إليه ما فاته؟ ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾، هذه هــي الحقيقية، وهذه هي النهاية التي نغفل عنها ونتناساها وسط زحمة الأحــداث والفــتن المحيطة بنا، حتى كأننا نظن أن ما نملكه من متاع الدنيا قادر على أن ينقذنا من بأس الله إن جاءنا، بل من قضائه وعدله سبحانه.

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾، فضــلاً عن أن المؤمن لابد أن يستسلم لأمر الله ويعتبر ما أصابه من سيئة ومن سوء بسبب ما

كسبت يداه، وقد يكون فيه الخير الكثير، والدعوة إلى تغيير مساره وسلوكه مع ربه، وهو أفضل من الاستدراج الذي ينتهي بصاحبه إلى الهلاك النهائي وإلى نقطة اللا رجوع.

نسأل الله تعالى في ختام هذه الوقفات أن يبصرنا بعيوبنا ويجعلنا وقافين عند حدوده، مستسلمين لقضائه وقدره وإن كان شديد الوقع على النفوس، وأن يلهمنا الصبر والسلوان على ما أصابنا في سبيل الله، وأن يجعلنا من الشاكرين لنعمه لكي تدوم وتستمر، ويوفقنا لاستعمالها في خدمة دينه والذب عن سنة نبيه.

٥- وقفات تربوية مع قصة موسى والخضر

كم أقف مشدوهاً أمام هذه القصة، ففي كل مرة أجد نفسي في مواجهة كم هائل وزخم من المواقف والعبر مدفونا في خبايا هذه القصة الفريدة العجيبة، وأقول في نفسي تلك هي الحكمة وذلك هو مربط الفرس، فلابد أن يجد المؤمن وكل باحث عن الحق ضالته في القصص القرآني بعامة، وفي هذه القصة بخاصة، مما يدفعني دوماً إلى اختزال هذه الوقفات وجمعها إلى حين، ووفقني الله لتسطيرها في هذه الورقات، لعل الله يكتب لي عليها أجراً ومغنماً، وينتفع بها من يقرأها، خاصة ونحن نعيش غربة الإسلام الثانية، وسط واقع غريب وأناس غرباء، في أشد الحاجة إلى زاد قرآني يكون لنا بمثابة الرفيق على الطريق، والزاد الجسدي والروحي على المسير، لمسيرتنا إلى الله، وما أطولها وما أوحشها بدون كتاب الله وتوجيهاته النورانية، لعل الله يجتبينا وينتقينا ويهدينا إلى سواء السبيل.

قصة موسى مع بني إسرائيل

لعلها من أطول وأهم القصص القرآني على الإطلاق، وهو دليل على ثقل الرسالة التي حملها موسى إلى بني إسرائيل وأهمية الدور المنوط بها في سلسلة الدعوات، ودليل على أهمية التجربة الدعوية لموسى عليه السلام، وكثرة الدروس والعبر الكامنة في طياتها.

سنقف في هذه السورة المباركة على جانب من هذه التجربة التي لم تُذكر في مواضع أخرى من كتاب الله تعالى، وهي جانب من تجربة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وما فيها من وقفات عظيمة المنفعة للدعاة وطلبة العلم، سواء في مسائل

العقيدة أو مسائل التعامل مع المدعوين بصفة عامة ومع المقربين والصفوة من الأتباع بصفة خاصة. وفوق كل ذي علم عليم

بعد إلقاء خطبة بليغة الأثر على النفوس، سئل موسى عليه السلام عن أعلم أهل الأرض، فقال: أنا، وهي إجابة حسبها موسى صائبة نظراً للقرائن والميزات المتوفرة فيه، حيث كان رسولاً من أولي العزم، وكليم الله تعالى، وصاحب معجزات عديدة لم تكن للرسل والأنبياء من قبله، وصاحب كتاب منزل فيه الكثير من التوجيهات الربانية والعلم الذي لم يكن لمن قبله.

ولكن هذا لا يحق لأحد مهما كانت درجته ونوعية شخصيته، لأن العلم نسبي ويتفاوت فيه الناس، كما أن لكل واحد نوع من العلم قد يتميز به عن الآخرين، ولا ضير في هذا ما دام أن هناك تكامل وتعاون وملء للثغرات من قبل هؤلاء العلماء، وليس التضاد والاختلاف والعياذ بالله .

التواضع في طلب العلم

وهي من الصفات الضرورية لكي تتحقق الاستفادة ويتم التحصيل، إلى جانب عدم الاستحياء في مقابل التكبر والحياء وهما الصفتان اللتان تكبلان المرء عن التعلم وتجعله دوماً مغروراً بنفسه يحسب أنه على شيء وهو أبعد ما يكون عن طالب العلم الحقيقي فضلاً عن أن يكون ذلك العالم الموهوم.

والعالم الحقيقي يكون متواضعاً بطبعه ويكون أخشى الناس وأبعدهم عن الرياء والزهو وحب الظهور، ومهما بلغ المرء

من درجة العلم فإنه يبقى محدوداً وغير ذي قيمة مقارنة مع علم الله الواسع ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾، والله تعالى أراد لعبده موسى عليه السلام أن يتعلم من خلال ما أودعه الله في قلوب عباده، والعلم مثله مثل الرزق، هناك ما يحصل عليه المرء بالكدح واتخاذ الأسباب، وهناك نوع يهبه الله لمن يشاء من عباده لكي يكون

حجة على بقية عباده، ولحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، ومنه ما آتـاه عبـده الصالح الخضر، الذي طلب من موسى أن يذهب للقائه، فكان منه ما كان.

فما كان من موسى إلا أن يستجيب لأمر ربه، وينطلق للبحث عن العبد الصالح، من أجل تحصيل ما خفي عنه من علم والاستفادة من غيره.

من هنا ينبغي على العلماء وطلبة العلم أن يقتدوا بموسى عليه السلام في تعاملهم مع غيرهم بعدم ادعاء العلم المطلق والتواضع في طلب ما خفي عنهم من أوجه العلـم المختلفة، ولن يستطيعوا إدراك ذلك ولو حرصوا، لأن العلم أوسع من أن يُدرك كله، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك جله، بل ينبغي الاجتهاد في التحصيل مـع التواضـع، واعتقاد أن ما عند الآخرين من علم ومعرفة يعتبر تكملة لما عندك ووجه آخر من أوجه العلم الواسع. فالله تعالى يفرق هذا العلم على عباده كل حسب طاقته ومدى تجاوبـه وانتفاعه بهذا العلم وكذلك حسب مدى خشيته لله تعالى وتقـواه ﴿ وَاتَّقُـواْ اللّـهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾. فالعلم متكامل، ولا يمكن لبشر أن يحيط بكل العلوم والمعارف، ومن ادعى هذا فهو جاهل ومنكر لحقيقة قرآنية ثابتة، وسنة ربانية جارية ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

التضحية في طلب العلم

لقد هيأ موسى عليه السلام وأخذ ما يلزمه من زاد ومتاع لرحلة طويلة وشـاقة، وكان عليه أن يترك أهله وقومه ومكانته بين قومه – رسولاً ومعلماً – لينطلق في هذه الرحلة المجهولة –تابعاً ومتعلماً– ، وهو أمر قاس على النفس. ولا شك ﴿ وَإِذْ قَـالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴾[٦٠].

فخرج موسى مع فتاه في رحلة مجهولة الأمد ولكنها معلومة الوجهـة (مجمـع البحرين)، هكذا هو طلب العلم يأخذ من الإنسان كل وقته ولا يعطيـه إلا بعضـه،

فالعلم غير محدود ومتشعب الاختصاصات لا يكاد يحصل المرء على جزء منه حتى يكتشف أنه لم يدرك شيئاً وبأن عليه أن يطلب أكثر فأكثر، فكلما تعلم الإنسان أدرك انه يجهل أموراً كثيرة، وهكذا يظل المرء في هذه الحياة حتى يلقى ربه، ولعل هذا جزء من مفهوم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اُطلبوا العلم من المهد إلى اللحد".

والتضحية تكون أولاً بالوقت حيث ينبغي أن يفرغ المرء نفسه لطلب العلم وعدم الاهتمام بأي شيء آخر معه، وذلك حتى تتم عملية التركيز والتحصيل على أتم وجه.

وتكون التضحية بالمال، ذلك أن العلم يحتاج إلى عمليات الانتقال والتنقل والوسائل اللازمة تحتاج إلى مال كاف لتغطية كل هذه المصاريف. فالعلم لابد أن تسعى إليه لكي تكون الفائدة المرجوة ويبارك الله فيه وليس العكس.

وتكون التضحية بالاستقرار الذي اعتاد عليه المرء في محيطه الذي يعيش فيه، من معارف يضطر عند قراره التنقل لطلب العلم إلى تركها والابتعاد عنها، وارتباطات ومصالح مادية إلى حين، وهذه عملية قاسية على النفس لا يتجاوزها إلا ذوو الهمم العالية والإرادات القوية

الصبر في طلب العلم

تكاد تكون من أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها طالب العلم، وهي بمثابة السلاح الأمضى الذي يشق به بحور العلم الواسعة والغامضة ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾[الكهف ٦٧- ٦٨]

إن صبرنا محدود، ولابد أن ينفذ في لحظة من لحظات رحلة العلم الطويلة، وهاهو موسى عليه السلام، وهو كليم الله ورسول من أولي العزم يحتاج إلى هذا الصبر الواسع والطويل لكي تتم عملية الاستفادة من ذلك العبد الصالح المجهول، فكيف بنا

ونحن المهازيل الضعفاء، لا نريد أن نصبر لكي نحصل على ما نريد، بل ترانا نشترط على أساتذتنا وشيوخنا ولا نعير لهم الاهتمام والاحترام اللازمين والمطلوبين في حقهم، بل في حق العلم الذي يحملونه.

والصبر المطلوب هو الذي لا يحرمنا من التعلم والتحصيل، ويجعلنا نتحمل المشاق والصعاب في ذلك، كما يجعلنا نتحمل شيوخنا وأساتذتنا ونتأدب معهم ونصبر على تصرفاتهم غير العادية بالنسبة لنا.

فالصبر مطلوب في العلم العادي المعروف ، فكيف بالعلم الذي يتطلب تفسيراً وتأويلاً خاصاً ؟! ومن ضعف الإنسان ونقصه أنه عجول، ويرغب في كشف الأشياء ومعرفتها قبل وقتها، وفي قطف الثمار قبل ينعها، وهذا من شأنه أن يضيع عليه كل شيء ويحرمه من كل شيء كذلك.

أصحاب السفينة :

ما يهمنا هنا هو الوقوف على بعض الدروس والعبر في هذه القصة ومثيلاتها وليس سرد القصة ذاتها، أقول وبالله التوفيق:

لقد انطلق موسى مع العبد الصالح في رحلة مجهولة الوجهة بالنسبة لموسى عليه السلام، وكذلك تكون رحلة العلم، قد يتحتم على المرء أن يجول بحثاً عن الحكمة وعن العلم النافع وهو لا يدري شيئاً عن الوجهة ولا عما يمكن أن يلاقيه في الطريق من عقبات ومصاعب، فلابد أن يتهيأ منذ البدء، حتى لا يصطدم.

كان اللقاء الأول مع أصحاب السفينة، وهو الدرس الأول في العلم الجديد، معروف من أصحاب السفينة يقابله العبد الصالح بخرق السفينة، يتبعه تعجب واستنكار

من موسى عليه السلام، وهو موقف طبيعي سيتخذه كل امرئ في مكان موسى عليه السلام.

لا ينبغي السرعة في الحكم على شيء لم تظهر بوادره بعد، فكم من كلمة تخرج من أفواهنا في حالات التعجب والغضب ، سرعان ما نندم عليها حينما تظهر لنا نتائج عكسية لظنوننا فالظاهر لا يعبر عن الحقيقة دائماً، وإن عبر عنها فيكون بشكل ناقص وغير كامل ، مما ينبغي أن يدفعنا للتريث والبحث عن الصورة كاملة، وذلك بقراءة ما وراء الخبر أو ما بين السطور، وعدم التسرع على إطلاق الأحكام تحت أي مبرر، فالتأخير في إدراك الحقيقة خير من التسرع في الخطأ.

فكانت المفاجأة بالنسبة لموسى عليه السلام، وكان الدرس الأول الذي يتلقاه في هذه الرحلة، كما كان السقوط الأول في سلسلة الامتحانات التي سيتعرض لها في هذه الرحلة العجيبة الغريبة ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ . فكان الجواب مباشرة ودون إبطاء ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾.

وهنا أدرك موسى أنه قد أخلف وعده ولم يف بالشرط، لقد كان الأمر أكثر مما يطيق، وهو دافع نبيل بلا شك، دافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جُبل عليه موسى عليه السلام، والذي من أجله حمل الرسالة ولقي ما لقيه من عنت وتكذيب وعداوة..

لكن المرء عند شرطه، وليس له مبرر لمخالفة ما اتفق عليه مع الطرف الآخر ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾[الكهف ٦٩].

شرط صعب التنفيذ، وهو ربما من حكمة الله تعالى البالغة، درس لموسى على أن علمه محدود، بسبب صبره المحدود، وبأن الناس متفاوتون في العلم بسبب تفاوتهم في الصبر، فالمرء يُعطى من الرزق والعلم على قدر صبره، فالعلم والرزق فتنة، لا يُؤتى منهما المرء إلا بقدر ما يستطيع الاستفادة والصبر على تحملهما وأداء حقهما.

كما أنه درس لنا جميعاً وللعلماء بوجه خاص، على أن العلم اختصاص، وبأن كل عالم له ملكاته التي يتفوق فيها على الآخرين، وله ميدانه الذي يحسنه دون الميادين الأخرى، وعليه فإنه ينبغي احترام الآخر وعدم الادعاء بامتلاك جميع العلوم والاختصاصات، وعدم الخوض والإفتاء في غير الاختصاص الذي يحسنه العالم، وترك المجال لذوي الاختصاص حتى لا تتميع الأمور، وتعم الفتنة ، ويسترخص العلم وتسقط قيمة العلماء .

وهنا اعترف موسى بعجزه وسقوطه في هذا الامتحان الأول ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾، إنه النسيان وسط هول الموقف، وصدمة لم يكن ينتظرها أحد، في مقابل ذلك الموقف الطيب والنبيل لأصحاب السفينة.

ولكن حينما يعرف المرء السبب والدافع النبيل والرحيم للعبد الصالح، سيدرك الحكمة وسيندم على تفاعله وغضبته حتى وإن كانت من أجل نصرة الحق.

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾

إنه حفظ لرزق هؤلاء المساكين، سفينة لا يملكون غيرها من أجل العيش، فأرسل الله تعالى العبد الصالح ليخرقها، وليرفضها جنود الملك الظالم – بسبب عيبها – لتبقى بين أيديهم ويبقى الرزق مضموناً ومحفوظاً من الله عز وجل.

ألا يحصل لنا هذا في كثير من المواقف في حياتنا ؟ كم من مصيبة – صغيرة كانت أو كبيرة – نتعرض لها فنسارع إلى الضجر والتذمر والحزن والأسى، بل كم من أمر يخالف أهواءنا وعقولنا يمر أمامنا – علينا أو على غيرنا – لا نرى سوى جانبه السلبي الآني والظاهر، ولكن مع مرور الوقت تنجلي الحكمة والنتائج ونقف مشدوهين ومندهشين ، وقد اعترانا الندم والخجل من الله ومن أنفسنا، فلا نملك بعد ذلك إلا التسبيح والتحميد لعالم الغيب والشهادة ، الحكيم العليم .

علينا أن نتعلم من هذه القصة كيف نتمالك أنفسنا عند الصدمة الأولى، وكيف نتسلح بالصبر على المجهول والمخبوء فالحياة مليئة بالمفاجآت والغيبيات، وليست دائماً موافقة لأهوائنا ورغباتنا، بل بالعكس تماماً، فنادراً ما تأتي الأمور بما نشتهيه، والحياة في آخر المطاف كلها كدح وتضحية وعطاء بصفة عامة، وحياة المسلم المطيع لربه، والمخالف لأهواء الناس على وجه الخصوص.

حدث في ظاهره مضرة ومفسدة، ولكن في باطنه منفعة ومصلحة، حفظ لأرزاق هؤلاء المساكين، وكم من مسكين ومستضعف يحميه رب العزة، بطرق نحسبها ابتلاء أو عقوبة لهؤلاء، فالعبرة بالخواتيم و ﴿ عَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾.

قصة الفتى وقتله

ويأتي الموقف الثاني والمشهد التالي من هذه الرحلة العجيبة، والدرس الثاني من الدروس الغريبة التي تجهز موسى لتعلمها ، وهاهو بعد أن أخفق في الامتحان الأول، في مواجهة الامتحان الثاني من هذه الرحلة التعليمية، هاهما يواصلان الرحلة ويلتقيان بغلام بريء، سرعان ما انقض عليه العبد الصالح فقتله دون سابق إنذار..

كيف سيكون موقف موسى وهو يرى مقتل غلام صغير لا حول له ولا قوة، ولم يقترف – على الأقل في علمه عليه السلام – ما يستحق به عقوبة القتل على حين غرة ؟. كيف سيقبل هذه الجريمة وهو الذي أرسله الله تعالى برسالة الحق لإحياء البشرية والدفاع عن النفس وحمايتها من الاعتداء والظلم – مهما كان نوعه – ، هاهو يرى هذه الجريمة الشنعاء أمام عينيه، كيف يمكنه السكوت يا ترى؟

وكيف يا ترى سيبرر العبد الصالح لموسى هذه الجريمة الشنعاء – في ظاهرها–، وهل سيقبل موسى هذا التبرير ؟

أما موسى فلم يتمالك نفسه، كما لم يتمالكها في الموقف الأول وهو أقل شأنا وجرماً من هذا الموقف، حيث صاح في وجه العبد الصالح قائلاً ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً ﴾[٧٤]، وكلمة نكراً أعظم من كلمة إمراً في حادثة خرق السفينة.

فكان جواب المعلم هو تذكيره بشرط المتابعة ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾[٧٥]، لكن المسألة أكبر من أن تتذكر الشرط، المسألة أعظم وأكبر من هذا، لكنه اعترف بنسيانه وإخفاقه في الامتحان الثاني، وهاهو يضع شرطاً فرضه على نفسه لكي يحاول تغطية هذا الإخفاق والنسيان، لعله يشفع له عند العبد الصالح فيواصل معه المسير ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾[٧٦].

ولكننا نقف ونسبق الأحداث لنعلم سبب هذه الجريمة والحكمة الكامنة وراءها، ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾[٨٠]. لقد سبق في علم الله الواسع أن هذا الغلام – لو عاش – فلسوف يملأ حياة أبويه طغياناً وكفراً، وسيكون عاقاً لهما ومصدر إزعاج دائم. فكان أمر الله تعالى للعبد الصالح أن يقتله ليريحهما ويستريح هو الآخر، فكان في هذا الأمر خير للأبوين الصالحين المؤمنين وللغلام نفسه، فسبحان الله الخلاق العليم الرحيم.

من هنا تتجلى حكمة الله الواسعة في الكثير من الأحداث، نعيشها أو نراها أمام أعيننا في الواقع المعيش، وعليه ينبغي أن نستسلم لقدر الله وحكمه في كل الأمور، وخاصة ما يتعلق بالمصائب التي تصيبنا .

إن أمر المؤمن كله خير ، فإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، فالله سبحانه لا يفعل إلا خيراً وإن كان ظاهر هذا الأمر شراً أو مضرة في أعيننا القاصرة. فهؤلاء الأطفال الذين نراهم في المقابر وقد وارت أجسادهم التراب ورحلوا عن هذه الدنيا وهم بعد في أعمار الزهور، قد نتساءل عن

الحكمة وراء هذا الغياب المبكر، ونجد في هذه القصة جواباً على هذا التساؤل وإزالـــة لهذا اللبس.

وقد يكون المرء حريصاً على بلوغ مقام ما ويتحسر على فوات هذا الأمر عنـــه، ولكن حينما يمر الزمن يكتشف أنه لو بلغه لحصل له مكروه لن يستطيع الصبر عليه أو تحمله، وهكذا في أمور كثيرة، يتحسر المرء على فقدانها ولكن في ذلك الحرمان الخير العميم.

وهذا ما حصل لهذين الأبوين المؤمنين ، حيث أبدلهما الله خيراً من هذا الغـــلام، وبصرف النظر عن صحة الروايات التي وردت في تفسير هذه الآية، فقد رزقهمـــا الله غلاماً خرج من صلبه العديد من الأنبياء، كانوا دعاة إلى الحق والخير بدلاً من الدعوة إلى الطغيان والكفر.

﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾[٨١].

قصة الغلامين والكنز المدفون

نواصل مع آخر محطة من محطات هذه الرحلة العجيبة الغريبة، حيث نتلقى مـــع موسى عليه السلام نوعاً جديداً من العلم، تمنينا لو طالت هذه الرحلة حتى لا تنقضي هذه الحلقات، وهذه العبر والعظات.

ولكن موسى عليه السلام حكم على نفسه بذلك الشرط المتعجـــل ﴿ قَـــالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴾ فليته سكت كما قال رسول الله ﷺ، لنتعلم أكثر.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾، رحلة طويلة ومتعبة، تنتهي بهم في قرية، فطلبا من أهل القرية أن يضيفوهما لأخذ قسط من الراحة، قبل مواصلة المسير.

لقد طافا على كل البيوت في القرية، ولم يستضفهما أحد، فأهلها – كما يبدو– من أبخل الخلق وأكثرهم شحاً، غريبين في القرية، قد بلغ بهما الإعياء والجوع مبلغهما، لم يجدا سوى الرفض والجفاء من أهل هذه القرية.

وحينما يئسا من كرم القوم، لجئا إلى جدار قديم يكاد يتهدم، ليستريحا قبل مواصلة الرحلة، ولكن العبد الصالح قام على وجه السرعة وفي هذه الحالة من الإعياء والإحباط النفسي من تعامل سكان القرية معهما، فبدأ في إعادة بناء هذا الجدار.

فكان موقف موسى عليه السلام هو الآخر سريعاً أنساه كل شروط الاتباع وحتى الشرط الذي وضعه بنفسه بعد حادث قتل الغلام: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾[٧٧]، وهو يقول بلسان حاله: كيف تبني هذا الجدار لهؤلاء القوم، وهم رفضوا ضيافتنا وإكرامنا، وهم لم يطلبوا منك ذلك، وحتى لو فعلت ذلك فعليك أن تطلب عليه أجراً، وهذا أقل الواجب.

وجاء الرد حاسماً وصارماً من قبل العبد الصالح ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾[٧٨]، هنا تنتهي الرحلة، وتنتهي معها مرحلة التعليم والتحصيل من هذا العلم الجديد، هنا سنفترق، وقبلها لابد من تأويل وتفسير ما خفي عنك، فهذا حقك ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾[٧٨].

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [٨٢].

كان في القرية البخيلة غلامين يتيمين، وكان أبوهما (الجد السابع كما ورد في التفاسير) صالحاً، فأراد الله تعالى أن يكرمهما ويحفظ لهما رزقاً مدفوناً تحت ذلك الجدار، وقد ورد في التفاسير أنه عبارة عن لوح من الذهب كتب عليه حكم وعلم نافع إلى جانب مال وفير، فالعلم رزق سيرثه الغلامان ويجعلهما صالحين مثل أبيهما، وأما المال فهو رزق آخر يمكنهما من تغطية مصاريفهما دون الرجوع إلى مساعدة الآخرين، وتكون أيديهما عالية.

فالعلم والمال وجهان لعملة واحدة، فكلاهما رزق، ونعم المال الصالح للرجل الصالح، فالعلم بدون مال يكون ناقصاً، وكذلك مال بدون علم من شأنه أن يقود صاحبه إلى التبذير وسوء التصرف، وربما إلى المعاصي وإلى الكفر والعياذ بالله.

هنا أيضاً تجلت رحمة الله تعالى بهذين الغلامين، وحفظ لهما رزقهما كما حفظه من قبل لأصحاب السفينة وللأبوين المؤمنين الصالحين، فالرزق قد يكون مالاً حلالاً وقد يكون علماً نافعاً وقد يكون ذرية صالحة، وفي كل الأحوال فهو محفوظ من قبل الله عز وجل ومضمون حينما يتوفر شرط الصلاح.

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾[٨٢]، فالعبد الصالح كان مأموراً ومسيراً من صاحب الخلق والأمر، ما كان له أن يعلم الغيب، ولا أن يفرق الأرزاق ويضمنها، ولا أن يمنع هذا ويعطي ذاك، فكل شيء بيد الله، وكل شيء بأمره وقضائه، وحكمته البالغة تبهر الخلق، ورحمته الواسعة وسعت كل شيء، ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

تلك بعض الوقفات التربوية والإيمانية أردت أن أسجلها، لنذكر بها أنفسنا القاصرة، لتعلم قدر ربها المتعال، وتعود إلى نهجه القويم، راضية وقانعة بما قسم الله لها في هذه الحياة الفانية، فلا تتزعج ولا تتذمر ولا تتحسر على ما يصيبها من بلاء، فليس وراءه سوى الخير والفرج ، ولا يتبعه سوى النصر والتمكين ، ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

، ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾، ولا يغلب عسر يسرين كما أخبر الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

﴿ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾.

